

وظائف الجسم الاقتصادية

د. عليّ محمّد أبو العزّ

الحلقة (٢)

في هذه الحلقة الثانية والأخيرة من هذا المقال نستكمل ما بدأناه في المقال السابق من التذكير والتنويه بالأدوار الهائلة والعجيبة التي تؤديها الأجهزة الحية الذكية المركبة في أجسامنا في تدبير وتسيير شؤون الجسم الاقتصادية، وإدارة أزماته بدقة وبراعة تعجز أقلام الأعلام عن وصفها . . .

إن الإنسان صناعة مبهرة، جعلها الله ذات تنظيم ذاتي، تستطيع إدارة عملياتها، ورسم برامجها، وتحليلها، وتنفيذها على مسؤوليتها الكاملة، وإصلاح أعطالها وتحسينها وتطويرها، بخلاف الآلات الصناعية التي يخترعها البشر، والتي تحاكي الأجهزة الإنسانية في بعض وظائفها، فهي على الرغم من تفوقها على الإنسان من حيث كمية العمل المبذولة، والدقة، وكيفية الإنجاز، فإن تلك الآلات لا تستطيع بذاتها أن تصنع أو تفعل شيئاً، والإنسان وحده هو الذي يظل مسيطراً على حركتها، وعلى تشغيلها وإيقافها، وعلى تحديثها وتطويرها، وهو سيدها، وهو الذي يصنعها، وينفخ فيها حياتها .

التخطيط والتنظيم وترتيب الأولويات :

يمارس المخ قيادته العليا على حركة الجسم بواسطة ملايين المعلومات غير المنسقة الواردة إليه من مراكز الإشارة المتعددة والمنتشرة في أنحاء الجسم، وبمجرد تصنيف المخ لتلك البيانات الوفيرة، وتنسيقها يبعث إلى عمليات التحكم الآلية المختلفة في الجهاز العصبي بأمر يستوجب ضرورة إدارة الحركات التي يرغب الجسم في تنفيذها بحيث لا تخرج عن حدود التصرفات المعقولة .

ولقد وجد الباحثون أن المخ يسعى دائماً للتخلص من المهام التي لا تتطلب مجهوداً ذهنياً¹، وذلك بإسناد تنفيذها إلى قسم عمليات التحكم الأوتوماتيكية، ليتفرغ للمهام الذهنية الأخرى، أي يتركها للقيادة الآلية كما يترك ربان السفينة وقائد الطائرة للنظام الآلي زمام القيادة ليأخذ قسطاً من الراحة أو ليتفقد أحوال الركاب وطاقم الطائرة، وهذه الاستراتيجية تشبه النظرة الحديثة للعمل، والتي تدعو إلى تحرير من البطالة المقنعة، وإلى تقسيمه إلى مراحل، يخصص لكل مرحلة منها عامل أو عمال معينون، وهذا التخصص يعطي نتائج ومخرجات مميزة؛ لأن العامل يصبح أكثر مهارة ودقة في إنجاز مهمة محددة، وبالتالي يستفيد المجتمع الذي يجد في كيانه وتحت تصرفه

¹. ينظر الموقع التالي : رابط.

عمالاً مهرة، ومنتجات في غاية الجودة، كما أن هذه الاستراتيجية تؤكد على أهمية ترتيب الأولويات؛ لأن الأنشطة لا تتساوى في الأهمية مع بعضها البعض، فهناك أعمال عاجلة وهامة، وهناك أعمال هامة ولكن من الممكن تأجيلها، وأخرى عاجلة وغير هامة، أو غير هامة وغير عاجلة، وعلى المدير أن يوازن بين الأهم والمهم من الأعمال، وتحديد الوقت اللازم وإدارته على ضوء المهام أو النتائج المطلوبة، حتى لا تضيق الأوقات سدى، وتعم الفوضى، وتتكدس المهام بعضها فوق بعض، تنتظر الوقت المناسب لإنجازها وقد لا يأتي أبداً، وتدخل تلك الأعمال في غيابات الأعمال المؤجلة التي قد لا تبصر النور .

في دنيا الأعمال تكمن المشكلة في أن الناس يضيعون أوقاتهم في الأعمال السهلة التي تتطلب وقتاً قصيراً، ويبدؤون بها قبل تلك التي تتطلب وقتاً أطول وجهداً أكبر لإنجازها، فالمعيار أو المقياس في نظرهم إعطاء الأولوية للأسهل لا للأصعب، وللمهم لا للأهم، ولما لا يخشى فواته على ما يخشى فواته، فتزداد الضغوطات، ولا تتحقق الأهداف المرسومة .

تخطيط القوى العاملة :

والمخ لا بد أن يقدر الموقف، ويزن التصرف، ويحدد الفعل أو الحركة الأكثر ملاءمة لإنجازه، ولهذا تراه يضع برنامجاً لعمله، ويخطط كيف يواجه المشاكل، ويدير الحركة وينفذها في الوقت المناسب، وبأكبر قدر من الاقتصاد، لئلا تستنزف منه الحركة كثيراً من الطاقة التي هو في أمس الحاجة إليها .

فمثلاً الحركات التي ينفذها لاعب كرة القدم وهو يرمي ركلة جزاء أو ركنية أو تمريرة عرضية أو طويلة .. حركة معقدة للغاية، ولا يمكن برمجةها بتفاصيلها في المخ حتى لو كانت ذات طبيعة متكررة؛ حيث إن الظروف التي تؤدي فيها العضلات وظائفها الحركية متغيرة، ولهذا فإن المخ على الرغم من أن عديداً من العضلات والمفاصل تشارك في إنجاز أي حركة، إلا أنه يبحث باستمرار -ولا يضيع أي وقت- في المجموعات المختلفة للتواءات العضلية والمفاصل حتى يعثر على المجموعة المناسبة التي تشترك في الحركة مشاركة أساسية وفعالة، بحيث يستبعد تشغيل العضلات والمفاصل الأقل ملاءمة، وهذه الطريقة أشبه بضبط جهاز الراديو على تردد ما، حيث تدير المفتاح يميناً وشمالاً حتى يتضح الصوت، وزيادة على ذلك فإن المخ يتذكر الحركات الخاطئة السابقة أو غير الفعالة بدرجة كافية حتى لا يكررها .

والخلاصة أن المخ يختار بعد البحث الدقيق العضلة المناسبة لإنجاز الوظائف الحركية، والتي تعطي النتيجة المطلوبة، ولا يلجأ إلى البحث العفوي غير المنظم عن العضلات إلا في الظروف المفاجئة التي تتطلب إيجاد حل عاجل أو رد فعل سريع؛ كالهرب من مباغتة عدو لا قبل لك به، وكقبض اليد ونزعها عند ملامسة سطح ساخن، ونحو ذلك .

وكما أن العضلات والحركات الناجمة عن عملها متفاوتة ما بين سريعة وبطيئة، وإرادية ولا إرادية، أو مدروسة وغير مدروسة، وناجحة وخاطئة، وفاعلة وخاملة ..، فإن البشر كذلك متفاوتون في مواهبهم وقدراتهم، ثم إنهم بعد

تأهيلهم تبرز مواهبهم، وتتميز اتجاهاتهم وميولاتهم، فتنوع المهن، وتختلف الحرف، وتباين الوظائف، وهنا يأتي دور الدولة (العقل المنظم) لتصنف هذه المواهب والطاقات، وتسند إليها الوظائف المناسبة بشكل منضبط، وأسلوب علمي يحدث انسجاماً وتناغماً لا نشاز فيه في أرجاء المجتمع، بحيث لا تُعطلُّ قوة بشرية راغبة في العمل، ولا تُحمَلُ عاملاً بما لا يطيقه، وتوزع الوظائف بلا ظلم ولا محاباة .

التكوين الشبكي¹ :

أحد أقسام الجهاز العصبي، يقع بين المخ والنخاع الشوكي، ويلعب دور المنبه الذي يوقظ المخ ليواصل نشاطه، كما يبقي العضلات في حالة استعداد للفعل، ويحث على الحركات أو ردود الأفعال السريعة في حالات الطوارئ، ويعترض التكوين الشبكي طريق الرسائل الواردة إلى المخ والأوامر التي يصدرها؛ فينظم كمية التدفق المعلوماتي الواردة إلى المخ والصادرة منه، وبالتالي يلطف من ضراوة المعلومات ذات الهجمات العصبية القوية، إنه مثل الحارس والسكرتير اليقظ؛ يحرس المخ من تيار المعلومات الجارف، وينظم سجل صادراته ووارداته، ويتفاعل مع الرسائل المعلوماتية الهامة، ويعطيها الأولوية، وخاصة التي تحمل أخباراً عن أخطار محتملة؛ ليتسنى للمخ التركيز على المهام الأكثر أهمية، ويحذف المعلومات أو الرسائل المسجلة التي لا لزوم لها حتى لا تؤثر على الذاكرة بما لا فائدة منه، وليترك المجال لمعلومات ورسائل واهتمامات أجدى منها .

التغذية العكسية :

إن أكبر مشكلتين تواجهان صاحب العمل لدى شرائه آلة صناعية إلكترونية أو أتمتاتية، هما : مدى الاعتماد عليها والثقة بأدائها، وصيانتها؛ لأن حدوث عطل في أحد محولاتها أو مكوناتها يعطل تشغيلها ويجعلها بلا قيمة، في حين تقوم الأجهزة البشرية بعملها من عشرات السنين دون خلل، على الرغم من تعرض الإنسان باستمرار إلى تأثيرات مؤذية تؤدي إلى اضطراب تشغيل الأجهزة تشغيلاً فعالاً، وقد يتعرض الإنسان إلى تلف أحد أجهزته، ويتم إصلاح العطل ، أو استبدال قطع الغيار الاحتياطية بالقطع التالفة التي لا يمكن إصلاحها، حتى في حال نفاذ كمية الاحتياطي التي يحتفظ بها الجسم لحالات الطوارئ؛ فإن الجسم لا يتوقف عن العمل بالكلية، بل يستمر في المحافظة على الوظائف الحية؛ فالأعمى الذي فقد حاسة الإبصار، يحاول أن يلائم نفسه مع الظروف الجديدة، فيتعلم القراءة بلغة (ابريل)، لقد فقدت مراكز المخ المتصلة بجهاز الإبصار تخصصها لكنها تعلمت القيام بوظائف جديدة، حتى المجنون الذي فسد إدراكه فساداً واضحاً، لم يفقد قدرته على الحركة، وعلى مضغ الطعام، وعلى تجنب الأشياء الساخنة، فعلى الرغم من انفصال العضلات عن مراكز التحكم في المخ، وانقطاع جميع خطوط الاتصال بينه وبينها، إلا أنها تبقى تستجيب للمؤثرات، وتحافظ على تشغيل ذاتها، والقيام بوظائفها ذاتياً في

¹ . رابط .

الأحوال غير العادية عندما يعتل المخ، وذلك لأجل المحافظة على حياة الجسم، غير أنه تشغيل أخرق يفتقر إلى الإدارة العقلانية .

ولا تخلو جميع الأنشطة وكافة المجالات من الحاجة إلى تبني خطة طوارئ تحدد الإجراءات التي يجب إطلاقها في الأوضاع الصعبة، والظروف التي تغير النتيجة المتوقعة أو المخطط لها، وهذه الإجراءات جزء من إدارة المخاطر، ويتم تفعيلها عند حدوث الأخطار الاستثنائية التي تؤدي إلى عواقب وخيمة، وذلك ليظل المجال عاملاً بطاقته الإنتاجية المعتادة .

بالإضافة إلى أن المخ يتوقف عن العمل لفترات قصيرة تكفي لإجراء إصلاحات شاملة، وصيانة عامة، وهذا يفسر الكفاءة المدهشة للجهاز العصبي، كما أن توقف المخ واستراحة الخلايا العصبية يساعد في جمع الطاقة، والمحافظة على قدرة عملها، وحرمانها من الراحة ينتج عنه مضاعفات قد تؤدي إلى اختلال الجهاز العصبي .

كما أن الحركات دائماً ما تكون مصحوبة بتيار مستمر من الرسائل تبعث بها العضلات المعنية إلى المخ، وهذه الرسائل تجعل المخ على علم بأن الأمور على ما يرام، وتسير وفقاً للخطة، وهذا ما يعرف بالتغذية العكسية التي تنقل للإدارة العليا المعلومات عن نتائج فعلٍ ما، وهي هامة جداً وتجعل الإدارة العليا (المخ) على إطلاع دائم على ما إذا كان التنفيذ قد تمَّ كما هو مطلوب، أو أن خلاً ما حال دون تنفيذ المهمة، وذلك من خلال تقارير ترفع إلى (سعادة دولته) ليتصرف على أساسها، ويقرر إما متابعة برنامج الفعل / الحركة، وإما التوقف أو التصحيح وإعادة الأمور إلى مجراها لترسو رسواً هادئاً .

ونخلص مما سبق أن المخ يقدر الموقف قبل رسم الخطة، ومن ثم يرسمها، ويحدد برنامج العمل، ويختار العاملين عليه بعناية، ويراقبهم ويقيس مدى كفاءتهم في تحقيق النتائج المنشودة، كما يعتني بجميع الرسائل الواردة إليه من جميع الأعضاء العاملة، ويرتبها بحسب الأهمية، ويفهمها ويتابعها بكل اهتمام دون كلل ولا سأم، وهذا هو سر تفوقه .

نظام البريد، وأجهزة المواصلات، وإدارة السكر في الدم :

الجسم البشري مزود بساعة بريد (غدد) لنقل الأوامر بتخفيض كمية السكر في الدم أو زيادته من عضو لآخر، والغدة النخامية هي الرئيس الأعلى المسؤول عن تنظيم عمل ساعة البريد (الغدد) وتوزيعه بينهم، ولهذا يسميها البعض (مايسترو الغدد)، وهي غدة صماء بحجم حبة البازيلاء تقع تحت المخ، وأحد وظائفها التحكم في كمية السكر في الدم، كما يتم التحكم في عمل الغدة النخامية عن طريق عصب مركزي (يقع في الفص الأوسط للمخ بعد مركز التحكم في درجة الحرارة)، وهو متخصص في تنظيم السكر واستهلاكه؛ حيث يقوم مركز التحكم (الفص الأوسط للمخ) بنقل البرقيات السريعة والأوامر إلى الغدة النخامية لتوزيع السكر في الجسم، وتنقلها الغدة النخامية بدورها إلى (الأقسام الفرعية المختصة) وهي الغدد التي تتحكم في كمية السكر في الدم .

وتبعث الغدة النخامية الرسائل البريدية والأخبار عن الحوادث والمعوقات ونتائج العمليات المنفذة إلى مركز التحكم (الفص الأوسط للمخ) بواسطة هرمونات (رسائل) تفرزها الغدد الصماء تصل إلى المركز العصبي عن طريق الدم، لتغذيه بالمعلومات الهامة .

وقد يتساءل أحدنا، لماذا تستخدم الغدد النخامية جهاز بريد اتصالاتي بطيء وبدائي نسبياً عبارة عن رسائل (هرمونات) محكمة الإغلاق تلقى في نهر الدم الجاري لتندفع مع التيار إلى العناوين المحددة، ويستغرق ذلك وقتاً أطول خاصة إذا ما قيست بجهاز البرقيات الذي يستخدمه مركز التحكم في الدماغ، فهو أسرع بكثير من بريد الغدة النخامية، السبب في ذلك أن إشارة العصب (البرقية) تصل بسرعة أكبر لكنها تختفي بمجرد تسليم الرسالة، والذي يحتاجه الجسم رسائل تنبيهية مستمرة لضمان توازن ثابت، وما دامت الهرمونات (الرسائل) موجودة في الدم فإنها تقوم بوظيفتها الهامة بتنبيه وإرشاد الكبد في وظائفه التحكمية بشكل مستمر .

الكبد :

الكبد هو المركز الرئيس لتوزيع السكر، كما يقوم باستخراج السكر (الجلوكوز) من الدم وتحويله إلى جليكوجين (نشا حيواني معقد)، وعندما تحتاج الخلايا العاملة إلى وقود (طاقة) يعيد الكبد تحويله إلى جلوكوز ويسلمه إلى الدم -الذي يعتبر جهاز نقل الوقود الرئيس في الجسم- ليوصل الدم طلبية السكر إلى الخلايا التي استدعتها، حيث تقوم الخلايا بتسلم الطلبية عن طريق امتصاصها من الدم، وعندما يحترق السكر في أجوافها تصيح طالبة المزيد منه، ويظل الكبد مشغولاً بصنع الجلوكوز من الجليكوجين المخزن في مستودعاته حتى ينفد المخزون، وفي هذه الحالة يتم سد النقص في المخزون عن طريق الجلوكوز المستخلص من الغذاء الذي يدخل الجسم .

ويلتزم الكبد بتسليم السكر للخلايا عند الطلب، خاصة للخلايا التي تتأثر بشكل خاص من نقص السكر، مثل خلايا الأعصاب والعضلات؛ لأن أي تأخير قد يؤدي إلى اضطرابات خطيرة تؤثر على العضو كله .

والدم القادم من الأمعاء يسجل كمية السكر التي تم استخراجها من الغذاء، وذلك قبل مروره بالكبد، وقبل اشتباكه مع تيار الدم الرئيس، حيث يقع الكبد عند مفترق طرق سريان تيار الدماء كالحاجز المروري، ويرسل الدم الإشارات المعلوماتية عن كمية السكر المسجلة إلى الكبد بواسطة مواد كيميائية تقوم بعمل ساعي البريد لتساعده في تحديد كمية السكر الواجب السماح لها بالمرور، والكمية التي يجب تخزينها بتحويلها إلى جليكوجين ليتم استهلاكها مستقبلاً .

كما أن الخلايا العضوية التي أرسلت لها طلبية السكر لا تأخذ من السكر أكثر من كفايتها، ولا تملك إمكانية الاحتفاظ بالكميات الإضافية، ولذا فإنها تتخذ الإجراءات اللازمة بسرعة لتوازن بين أي اختلاف في كمية السكر المطلوبة وتلك التي تسلمها الدم، فإذا كانت نسبة السكر في الدم كبيرة يتم الاتصال بجهاز الطوارئ (البنكرياس) من خلال رسالة عاجلة تتضمن ضرورة إفراز الأنسولين لأجل حرق السكر، وتخفيض كميته في

الدم، ولما كان نقص السكر يشكل خطراً على الجسم أكبر من زيادته، فإن الأعضاء لا ترسل ساعي بريد واحد، وإنما بعدة سعاة بريد لنقل الأوامر إلى الكبد بضرورة الإسراع بضخ السكر للدم، وهذه الإجراءات الاحتياطية الخاصة هي لموازنة أي هبوط خطير مفاجئ في كمية السكر .

الكبد مدينة صناعية :

الكبد مدينة صناعية عملاقة قائمة بمئات الأعمال المتنوعة من إنتاج، وتنظيم، وتخزين، وإعادة تدوير، وتوزيع . . .؛ فالكبد يتسلم من خلال قسم الصناعات التحويلية المواد الخام من ميناء الدم، لاستخدامها في عملية التصنيع بتحويلها إلى منتجات ذات فائدة كبيرة للجسم مثل : البروتينات، والجلوكوز، والعصارة المرارية، والكوليسترول، ومن ثم يصدر منتجاته إلى أقسام وجهات خاصة في الجسم .

إعادة التدوير :

يعيد الكبد استخدام مخلفات الجسم ونفاياته وسمومه لإنتاج المادة الصفراء (عصارة المرارة) القادرة على إذابة الدهون وتكسيدها لتسهيل عملية الهضم، وهذه العملية تعرف بـ (إعادة التدوير)، ولقد حققت الدول التي انتهجت هذه السياسة، فدورت إطارات السيارات التالفة إلى مواد مطاطية، والأطعمة الفاسدة المتعفنة إلى أعلاف وأسمدة عضوية . . .، عوائد مالية كبيرة بالإضافة إلى تنمية مستدامة .

وفي الواقع المعاش أخفقنا في تدوير الأشياء وتكرير الاستفادة من منافعها، وأفلحنا في إعادة تدوير وتكرير وتلميع الوجوه والشخصيات المستهلكة، التي لم يُجد وجودها نفعاً، ولم تحدث تغييراً، ولم تقنع أحداً بأن يثق ببرامجها ونواياها ووعودها، فقد لبثوا في المناصب عمراً وطال عليهم العهد والأمد حتى صار الطفل الذي لم يظهر بعد على عورات النساء مميّزاً لعوراتهم وأخطائهم الفاحشة، ولو شاء لأحصاها عدداً، بل يملك من الفراسة ما يجعله يتنبأ بفشلهم فور سماعه لأسمائهم، ولم تعد تطميناتهم المخدرة تؤتي مفعولها، ولم تعد الأجسام تستجيب لتأثيراتها بعدما شكلت مع الوقت مناعة ترفض استقبالها على الرغم من تكبير بعض الجماهير الإعلامية لتلك التطمينات وتهويلها واعتبارها في عداد الإنجازات .

شبكات الاتصال :

كل من الجهاز العصبي والجهاز الهرموني والجهاز المناعي ثلاث شبكات اتصال متكاملة ومتراصة ومندمجة معاً في اتفاقية تعاون لنقل المعلومات وتبادل التغذية الراجعة، بما يضمن تماسك المبنى البشري، واستمرار الأعضاء في أداء المهام بكفاءة، ويمكن لعدم توازنها الناتج عن تلقيها لمعلومات غير صحيحة بسبب صدمة نفسية، أو تغيرات في البيئة، أن يكون سبباً لأمراض خطيرة، وعمل هذا النظام لا يتوقف أبداً إلا عند الموت، وبدون هذا النظام الذي يربط شبكات الاتصال الثلاثة بعضها ببعض لن تكون الحياة ممكنة .

الأسنان :

وأكثر شيء يسترعي الانتباه الدقة التي تمضغ بها الأسنان الطعام وكأنها خط إنتاج؛ حيث تقوم الأسنان الأمامية بقطع الطعام وتشريحه، بينما تقوم الأسنان الخلفية (الأضراس) بطحن الطعام وهرسه بحركات انطباق وانفراج متناسقة متطابقة .

واللافت للانتباه أن الإنسان يبدأ حياته بدون أسنان لأنه لا يحتاجها؛ لاعتماده في طعامه وشرابه على الرضاعة، وتبدأ الأسنان بالظهور عند احتياجه إليها، وبالقدر الذي يحتاجه، وتتوزع الأسنان بكوادرها المؤلف من قواطع وأنياب وأضراس على الأماكن المخصصة لها في الفكين، ولا يتجاوز عددها في مرحلة البلوغ اثنين وثلاثين سنناً، ولا تقبل سنناً إضافياً لأن وجوده سيكون كعدمه، أما ضروس العقل الأربعة فيستقبلها الفك في السابعة عشرة من العمر، فسبحان من جعل لكل شيء قدراً، فالأولويات مرتبة، ولا يوجد شيء لا طائل من ورائه، والكل يعمل بكفاءة في غاية البراعة .

الأنف :

يؤدي الأنف خمسة وظائف أساسية، وهي : التكييف، والتدفئة، والحراسة، والصيانة، والنظافة؛ فجهاز التكييف والتدفئة في الأنف يعمل على تهوية الهواء الذي يمر إلى الجهاز التنفسي عبر عمليات الشهيق بإمداده بنسبة معينة من بخار الماء لترطيبه حتى لا يكون جافاً فيحطم أغشية الرئة الرقيقة، وإمداده بالحرارة المناسبة لجعله مقارباً لحرارة الجسم الضرورية لجميع التفاعلات الكيميائية والبيولوجية، وأما الغدد المخاطية في الأنف فتقوم بالحراسة الدائمة من خلال إفراز سائل مخاطي لزج يلتقط كالمغناطيس والمكانس الكهربائية الأتربة والأجسام الغريبة السابحة في الهواء، وهو مزود بكتيبة من الأنزيمات التي تدافع بضراوة عن حمى الأنف، وتقتل بلا رحمة أي ميكروب يتربص به ويحاول أن يغزوه، ثم يأتي دور الأهداب الخلوية في تنظيف محيط الأنف من السائل المليء بالأوساخ والأجسام الغريبة والميكروبات المقتولة بدفعها إلى البلعوم ليتخلص منه الجسم عبر الفم .

كلمة ختامية :

على الرغم من جميع الحقائق البشرية المكتشفة، والتي نوهنا على جزء يسير منها، ما زالت الإنسانية على العتبات الصغيرة لسلم المعرفة اللانهائية، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً جداً، ويكفي أن نبصر ما في أنفسنا من عجائب كامنة أبدعها أحسن الخالقين سبحانه، وأن نجعل من القليل كثيراً، وللأسف نحن أمامها وهي أمامنا لكننا عاجزون عن رؤيتها وكأن أعيننا معصوبة تماماً !

كل العلوم ما هي إلا محاولات من أجل أن نعرف شيئاً عن أشياء كثيرة في الأرض وفي أنفسنا، والاقتصاد الكامن في ذواتنا وأسميه الاقتصاد الصادق أو الفطري أو البريء، لا يسمح للإنسان أن يتدخل فيه ليغيره أو ليملي عليه

شروطه، وهذا هو الفارق بين الاقتصاد المسيّر والاقتصاد المخيّر، فالاقتصاد المسيّر تديره أجهزة نظامية ملهمة أتمتها الله سبحانه وتعالى وفق غرائز نظامية دقيقة؛ إنها تتصرف بوحى ..، ولها تعليمات وبرامج منتظمة ..، وهي لا تخطئ، ولا تكذب، ولا تلف ولا تدور .. صادقة .. إذا أرادت فعلت .. وإذا فعلت فقد حققت إرادة الله .

أما الاقتصاد المسيّر؛ فهو الاقتصاد الذي أذله الإنسان بلقمة العيش، وبأطماعه الدونية، وبنقص الموارد، ولم يتلطف في خضم طوفان الأزمة بدعوته -ولو مجاملة- ليركب معه سفينة النجاة! بل لم يعطف على حاله وهو يراه يغرق .. فيمد له ولو يداً واحدة لإنقاذه!

إنه اقتصاد سجين .. تحيط به الأسوار من كل جانب، ونحن نعطيهِ القليل من احتياجاته لنحافظ فقط على حياته، كالمريض الميت سريراً أو دماغياً، قلبه ينبض لكن جسمه جثة هامدة، ونمنحه في بعض الأحيان إطلاق سراح مشروط ليتفرج عليه الناس، ثم يزج به مرة أخرى في قفصه، فهو اقتصاد قد دربناه على ألا يكون اقتصاداً، كالحیوان المتوحش الذي دُرّب على أن يكون أليفاً، أو بهلواناً للفرجة، فنزعنا منه فطرته، وطردهنا غريزته طرداً، هكذا هو اقتصادنا؛ أعطينا لغرائزه إجازة، وعطلناها، فلا هو في حاجة إلى حاسة الشم لتحسس المخاطر القادمة، واتخاذ الاحتياطات والتحوطات الضرورية، ولا هو في حاجة إلى عينين ليبصر الموارد التي بإمكانه استغلالها، ولو أبصرها فإنه يدل غيرها عليها، ولم تعد الأرض وما على ظهرها وما في بطنها يهيمه، وابتعد عن طبيعته الصادقة التي تدعوه إلى أن يشد ظهره، ويصلب عوده، ولم تعد حيوية بالنسبة إليه، وتحول إلى اقتصاد استعراضي مثلما تحولت حيوانات السيرك المتوحشة إلى دمي استعراضية .

إنه سجن غير مرئي ! لكنه يمسك باقتصادنا .. ويحده .. ولذلك فهو لا يرى بعيداً أو لا يدرك أبعد من قضبان السجن، والعجيب أن العلوم الحديثة (التكنولوجيا) ساعدتنا في تطوير حواسنا .. فأصبحنا نرى من خلال الميكروسكوب والتلسكوب والمرصد أبعد وأعمق وأدق وأوسع وأوضح مما نستطيع، وساعدتنا في اختراع السيارات والطائرات والقطارات التي نقلتنا إلى ما لا تستطيع الأقدام البشرية الوصول إليه، لكننا لم نستطع أن نظور اقتصادنا ليرى الواقع المعاش بهذا العمق والبعد والوضوح، وبقيت المسافات بين الواقع المعاش والواقع المنظور شاسعة .

لا بد أن نحطم قيود الحياة العادية، وأن نرفض الواقع المرير، وألا نعيش في خيال بعيد، وألا نصنع لأنفسنا جنات زائفة، وأن نرفع الأنقاض المنهالة على ثرواتنا، وأن نزيل الصدا عن المرايا التي جمّلت مساوئنا، وألا نغترّ بما نقوله نحن عن اقتصادنا اغترار الإبن بما تقوله أمه فيه! فإنها تراه أعظم إنسان، لكن غيرها قد يراه أسوأ الناس .

وكلما اضطربت عقول الناس وقلوبهم، واختلّت القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية بينهم، وفسدت حياتهم ..، ازدادت حاجتهم إلى ركن شديد يؤوون إليه .. إلى نفحة أو تنفيسة روحانية تبتّ فيهم الأمان والأمل، ولا أحد يقدر على هذا إلا الله، فكان لا بد من التطلع إليه .. لعله يأخذ بأيدينا، وينير طرائقنا، ويصلح اقتصادنا .

إن البشر بجميع طاقاتهم العلمية، وإمكاناتهم التقنية، يحتاجون أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل قبل أن يقتربوا فقط من المخ الذي يشغل حيزاً لا يزيد عن (١٥٠ سم)، ويزن ثلاثة أرطال (١٤٠٠ غرام) أي حوالي (٢٪) من الوزن الإجمالي لجسم الإنسان كله، ويستهلك (٢٥) وات من الطاقة، تماماً مثل لمبة كهربائية صغيرة، كما أن السعة التخزينية للذاكرة تبلغ (مئة ألف جيجا بايت تقريباً)، وتقطنه المليارات من الخلايا العصبية المتشابكة .
أليس عجباً هذا الإنسان؟! تبارك مَنْ سواه .. وعلى موائد كرمه رباه ..
(قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة) والحمد لله رب العالمين .